

ملف العدد

المشروع الحضاري

عند مالك بن نبي



بناء الإنسان المعاصر في ضوء فكر مالك بن نبي

د.كريمة ناوي

مدخل..

نعود مرة أخرى لفكر مالك بن نبي من حيث كونه ذاك المفكر الذي ما تزال نظرياته صالحة لزماننا هذا تلك النظريات التي قدمها سواء في الاقتصاد أو تلك المتعلقة بالمجتمع. وربما لا نبالغ اذا قلنا أننا بحاجة أكبر اليوم لتلك النظريات التي حاول من خلالها الوصول بالمجتمع العربي والإسلامي عموما الى قمة نضجه وتطوره.

مالك بن نبي ليس مجرد باحث حاول أن يطرح مجموعة أفكار، بل هو رجل سعى بكل ما استطاع أن يرى أفكاره متجسدة في مجتمع ليس مثاليا لكنه قد يقترب من المثالية اذا استطاع كل فرد أن يقوم بواجبه فقط لا أكثر.

لا يقوم المجتمع ولا يستقيم إلا اذا تمكنا من تحديد مساراته وعلى مستويات عديدة أهمها المسار الثقافي الذي يلعب دورا مضاعفا في صنع انسان يحلم به مالك بن نبي.

من خلال مجموعة المحاضرات التي ألقاها بجامعةات مختلفة داخل الجزائر وخارجها استطاع مالك بن نبي أن يؤسس لفكرة اجتماعية هامة، هي تكوين فرد بناء اجتماعيا. هذه الفكرة التي نادى بها طوال حياته والتي حاول من خلال محاضراته أن يتحدث عنها وأن يحلم بتجسيدها في المجتمع الجزائري كمجتمع عربي وحتى في العالم الاسلامي عموما.

هذه المحاضرات التي تتناول الفرد والتي ضمها كتابه (تأملات) هي التي أثارت اهتمامي فحاولت أن أتطرق اليها في هذه المداخلة.

مالك بن نبي..مفكرا..

شهد عام 1905 ميلاد ثلاث شخصيات هامة في التاريخ الإنساني ،العالم أنشتاين والفيلسوف جان بول سارتر والمفكر الجزائري مالك بن نبي الذي يقول عن ذلك: " كان مولدي في الجزائر عام 1905، أي في زمن كان يمكن فيه الاتصال بالماضي عن طريق آخر من بقي حياً من شهوده، والإطلال على المستقبل عبر الأوائل من رواده. هكذا إذن فقد استفدت بامتياز لا غنى عنه لشاهد، حينما ولدت في تلك الفترة"¹. ومنذ شبابه انكب على محاولة فهم العلاقة بين الحضارتين، الحضارة العربية الاسلامية والحضارة الغربية، ما الذي جعل الغرب يتقدم بينما يتراجع العالم الاسلامي.

اتخذ مالك بن نبي من اللغة الفرنسية وسيلة للتأليف لكنه استمد كل نظرياته من الثقافة الاسلامية وتحديدا من القرآن الكريم والحديث النبوي، فنهل بذلك من ثقافتين عربية وغربية.وفي هذا تقول د/عائشة يوسف المناعي في مقال لها بعنوان-مظاهر التجديد في فكر مالك بن نبي "وقد تميز فكر مالك بن نبي بتكونه من ثقافتين: الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية. وقد أعطته قيمه الإسلامية المغروسة في نفسه فترة طفولته ومراهقته قوة وصلابة أمام الأحداث المتغيرة والمتواترة على حياته، بل وكانت تلك الأحداث مع سمات شخصيته وإيمانه المتأجج بالله تعالى عصمة له من الانحراف مع أى تيار من التيارات الفكرية المتلاطمة في عصره.. وكل ذلك كان سببا - أيضا في توجيه مسار فكره إلى البحث عن أسباب ضعف وتخلف العالم الإسلامي ومن ناحية أخرى محاولة البحث عن إيجاد الحلول العلمية والعملية للخلاص من هذا التقهقر والضعف".

شخصية ابن نبي كانت مؤهلة لتحمل رسالة اصلاحية كانت بدايتها من اشادته بالفكر الاصلاحى كالحركة الوهابية ثم بشخصية جمال الدين الأفغانى الذى اعتبر كمصلح ومنقذ للعالم الاسلامى والذي كان فكره دعوة للتجديد والتغيير في آن واحد فيقول عنه: " وهكذا كانت كلمة جمال الدين فقد شقت كالمحراث في الجموع النائمة طريقها فأحيت مواتها ثم ألقت وراءها بذورا لفكرة بسيطة، فكرة النهوض، فسرعان ما آتت أكلها في الضمير الإسلامى

ضعفين، وأصبحت قوية فعالة"². وازداد اهتمام بن نبي بحركة الاصلاح ممثلة في شخصية محمد عبده الذي تتلمذ على يد الأفغاني فيقول بن نبي: "وكان الشيخ عبده يعلم علم اليقين أنه لكي يتحقق الإصلاح يجب أن يبدأ خطوته الأولى من الفرد، ولقد وجد أساس هذه الفكرة في كتاب الله"³. كما لم يخف بن نبي اعجابه بالعلامة الجزائري عبد الحميد بن باديس رائد حركة الاصلاح في الجزائر.

لقد شغلت هموم العالم العربي والإسلامي فكر ابن نبي لما يعانيه من استعمار وتخلف وتلك الافكار الميتة التي ترسخت فيه ولم تساعد على التقدم. والى عام 1973 حيث وافته المنية لم يتوقف ابن نبي عن دراسة مشكلات العالم الاسلامي في مختلف نواحيه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ترك ابن نبي مجموعة من المؤلفات قاربت الخمس وعشرين كتابا اهتم محاميه من لبنان بإعادة طبعها وأهمها:

- تأملات - دار الفكر - دمشق - 1979.
- دور المسلم ورسالته - دار الفكر - دمشق 1978.
- شروط النهضة - دار الفكر - دمشق 1986.
- الظاهرة القرآنية - دار الفكر - دمشق 1980.
- مذكرات شاهد القرن - دار الفكر - دمشق - 1984.
- وجهة العالم الإسلامي - دار الفكر - دمشق - 1981.
- المسلم في عالم الاقتصاد - دار الفكر - دمشق - 1979.
- في مهب المعركة - دار الفكر - دمشق - 1981.

المجتمع.. والصعوبات..

في معرض حديثه عن الصعوبات التي قد تواجه قيام مجتمع سليم أشار مالك بن نبي الى أن الاستعمار قد بذل كل ما في وسعه ليبقي على المجتمع الاسلامي متخبطا في جهله تخلفه ،وما محاولاته لزرع تصورات ومفاهيم خاطئة إلا دليل على سعيه لتحقيق غرضه ذاك.

انه لمن البديهي والطبيعي جدا أن يحاول المستعمر وبكل الوسائل أن يفشل كل محاولة سواء كانت فردية أو جماعية ساعية الى الاصلاح وبث الحركة والنشاط، لكن ليس من البديهي أن يستسلم الفرد لذلك وأن يركن الى الاستسلام والاقتناع بأفكار المستعمر.

من هنا تنشأ تلك الصعوبات التي تواجه الفرد والمجتمع الذي ينتمي اليه ومن هنا كان لزاما على أولئك المفكرون أن يحملوا راية التجديد والإصلاح..ومن هنا كانت جهود مالك بن نبي في محاولته دراسة المجتمع العربي والإسلامي وحتى سلوكيات الفرد في أبسط صورها.ولعل التهاون في السلوكيات البسيطة سيؤدي الى فشل المهام الكبيرة.

عدم فهمنا لتلك المشكلات ودراستها في ضوء معطياتها الصحيحة ومن زوايا قد تتعدد هو ما يخلق عجزنا أمامها وقد يكون الفشل نتيجة حتمية لذلك.هذا ما حاول ابن نبي الاقتراب منه، تحديد الأسباب وتحليل الظاهرة للوصول الى النتيجة التي تساهم ولو قليلا في حل الأزمة.

الفاعلية:

أشار مالك بن نبي الى مفهوم الفاعلية والتي ترتبط حسب رأيه بالنشاط الاجتماعي الذي يقوم به الفرد، فالفاعلية" تنمو تدريجيا مع تعقد المصلحة"⁴.فكلما كان نشاط الفرد الذي يسعى لسد حاجة الجماعة، كلما ارتقى الانتاج الاجتماعي وحقق غايته أو بمعنى ما انها مصلحة العامة هي التي

تفسر مفهوم الفاعلية. لكن المشكلة التي تواجه أي مجتمع هي مشكلة الحل الفردي للمشكلة أو بمعنى آخر حصر المشكلة في زاوية واحدة، كأن تحل اقتصاديا فقط أو اجتماعيا فقط لأنها ستثبت بلا شك فشلها لأن هذا سيفضي الى عجز " عن حل المشكلة التي هي مشكلة الحضارة أولا وقبل كل شيء"⁵. فهذه الفكرة التي نادى بها بن نبي قادرة على اخراج المجتمع العربي من أحادية التفكير والنظر الى المشكلة من مختلف الزوايا والتي عادة ما تسمح يوضع المشكلة في اطارها الصحيح ليتسنى لنا حلها. ان الفرد لا يفكر خارج المجتمع الذي هو ركيزة من ركائزه.

ان المجتمع الذي يفقد أسباب أو مسوغات وجوده هو مجتمع يفقد سبب وجوده، ويتحول الى مجتمع فاقد لوجوده. وبالنسبة لهذه النقطة فإن مالك بن نبي قد أفاض في الحديث عنها من حيث اشارته للمشكلات التي قد تواجه الفرد والمجتمع معا. وكلما أخطأنا في تحديد المشكلة كلما استحال الوصول الى حلها" بعد تجربة ثلاثين سنة ، أرى أننا ما حصلنا طائلا في وضعنا المشكلات تحت هذه العناوين البديهية. ذلك لأننا لم نضع المشكلات في وضعها الصحيح، ولم نتأملها في جوهرها"⁶. فتصور المشكلة في اطار اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي لا يحدد المشكلة ولا يساهم في حلها. فالقضية اذن حسب المفكر " سواء كانت في اطار اقتصادي أو اطار اجتماعي أو اطار سياسي تتصل بموقفنا نحن أفرادا. تتصل بموقفي مواطننا أمام المشكلات. انني عاجز عن صياغتها فكريا، وإذا صيغت فكريا بصورة ما فإنني عاجز عن التصرف في الامكانيات لحلها"⁷.

ان المشكلات كثيرة لكن الوصول الى حلها هو ما سعى اليه بن نبي من خلال طرحه للعديد من الأسئلة. فلو أردنا معالجة مشكلة نظافة الشوارع مثلا فإن الفرد كمصيغ لفكرة النظافة يشعر بأنه يتحمل جزءا من المسؤولية تجاه ذلك، ومعالجة المشكلة بمضاعفة سلال المهملات لا يحل المشكلة لأن هذا الحل اذا كان يصلح لمجتمع فهو لا يصلح لمجتمع آخر ودليل المفكر قوله: "أرى بعد خبرة دامت ثلاثين عاما أن هذا الحل حل نظري، فهو تكديس لعدد آخر من سلال المهملات. ودليلي على ذلك أنني شاهدت في كثير من شوارعنا عددا كبيرا من سلال المهملات، ولكنها شبه فارغة ومن حولها الأرض ملأى بالمهملات"⁸. ان المشكلة اذن ليست مشكلة

امكانات مادية بل هي مشكلة أفكار، مشكلة الانسان أولاً" ان القضية كانت في أنفسنا، ان علينا أن ندرس أولاً الجهاز الاجتماعي الأول وهو الانسان وليست السلال وغيرها فإذا تحرك الانسان تحرك المجتمع والتاريخ وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ"⁹. فالإنسان هو أساس بناء كل مجتمع ووحده يمنح هذا المجتمع قيمته ووجوده.

ولعل تحمل الانسان لمشكلات مجتمعه ومحاولة ايجاد حلول لها في اطارها الصحيح هو ما يجعله يسيطر على المشكلة بدل أن تسيطر عليه فيوجهها حسب ارادته اذ يتأكد أنها نابعة من سلوكاته وموقفه تجاه تلك الأشياء أي من ارادته هو. الارادة التي في داخل الانسان هي التي تستطيع أن توجهه الوجهة الصحيحة ليتمكن من خدمة مجتمعه أو على الأقل عدم الضرر به.

لقد كرم الله الانسان.... ومنحه من جمال الروح والجسد ومن الطاقات الداخلية ما يؤهله ليكون سيد كل ما حوله. انه الطاقة التي تحرك الكون وتمنحه قيمته. ومن هنا فإن الانسان ومن خلال هذه المنحة الالهية التي جعلته أفضل الكائنات هي التي تحدد قيمته من ناحيتين حسب المفكر "قيمه انسانا وقيمه كائنا اجتماعيا.... معادلة تمثل جوهره انسانا صنعه من أتق كل شيء صنعه ومعادلة ثانية تمثله كائنا اجتماعيا يصنعه المجتمع"¹⁰. انطلاقا من هنا فالمجتمع له من التأثير الفرد أو الانسان ما يجعله ينشأ نشأة سليمة تصنع منه فردا فاعلا اجتماعيا أو تجعل منه فردا لا دور له. والفرد الذي هو أساس البناء الحضاري لا يمكنه أن يكون خارج المجتمع في تفكيره، انه جزء لا يتجزأ من مجتمعه ويعنيه كل ما يحدث داخل هذا البناء المتكامل.

ان السؤال الذي نطرحه مع مالك بن نبي هو ما الظروف التي تجعل من الانسان كائنا فعالا اجتماعيا؟.

حدد المفكر ذلك من خلال استعراضه لمجموعة من الأمثلة عبر التاريخ (بني اسرائيل وفرعون مثلا) وهو ما أطلق عليه حالة القلق أو الحالة النفسية التي يشعر بها الفرد في المجتمع والتي تكون دافعا للتغيير. فرضى الفرد بالأشياء واستسلامه لها هو ما يجعله يفقد ارادته الواعية في الانتقال الى الحالة الايجابية التي تعيد اليه قيمته كإنسان.

ان فاعلية الانسان في المجتمع لا تأتي من فراغ..انها مجموعة شروط ترتبط بتاريخ محدد تستطيع من خلاله تحقيق وجودها.

الانسان ليس مجرد آلة، انه كائن يعي الأشياء، يدرك دورانها حوله ولذلك فهو بحاجة الى توجيه واع ليتمكن من استغلال طاقاته استغلالا صحيحا يخدم من خلاله نفسه ومجتمعه

"فالتوجيه هو ادارة ملايين من السواعد العاملة والعقول المفكرة في أحسن الظروف الزمنية والإنتاجية المناسبة لكل واحد من هذه الملايين..¹¹ فتوجيه طاقات الفرد توجيها صحيحا والتحكم في ادارته لا يجعل المشكلة تحيد عن توجيهها.

تكوين الانسان..اجتماعيا..

أ/الارادة:

كيف ينتقل الانسان من مجرد مستهلك الى منتج ؟ هذا ما شغل المفكر مالك بن نبي.كيف نصنع انسانا يقدر قيمة الأشياء؟ وكيف يتحول هذا الانسان الى محفز للمجتمع الذي ينتمي إليه؟.

بالإرادة يستطيع الانسان أن يبني مجتمعه ويحقق أهدافه ويحدد معالم وجوده على الأرض.وبالإرادة أيضا يتمكن من رسم أهدافه والوصول اليها.وخلال هذه المسيرة فإنه يسعى لإشباع كل حاجاته ومن ثمة يسعى الى تحقيق الرسالة التي كلف بها وهي خدمة المجتمع الذي ينتمي اليه فبداع " من طبيعته من أجل تقدمه فهو مزود بسلطة مزدوجة ولكن التكليف هو الذي ينظم العلاقة الداخلية لهذه السلطة المزدوجة بحيث يكون العمل على الغرائز واندماجها مطابقا لرسالته الاجتماعية..¹²..والإنسان حينما يصل الى اشباع حاجاته المادية على اختلافها لا يقف عند ذلك بل يتجاوزه الى فاعلية أعمق تسمح له بأن يكون منتجا اجتماعيا.

لقد حاول مالك بن نبي دراسة الانسان في ضوء ثنائية متلازمة هي الاستعمار/التخلف" الاستعمار كان وجه الواقع السياسي الذي تعيشه مجتمعاتنا والتخلف هو وجه الواقع الاجتماعي

والمعرفي، وكلاهما يجتمعان في المجتمع وواقعه وقدرته على مقاومة هذا الواقع أو الاستسلام له¹³. هاته الثنائية الهامة هي التي بنى عليها بن نبي الكثير من أفكاره.

لا يعيد مالك بن نبي مشكلة التخلف الاجتماعي اذن الى النقص في النواحي المادية بل يعود السبب الى مشكلة الأفكار التي مازال المجتمع العربي عموما يعاني منها¹⁴ فقد نتاح لمجتمع ما كل الوسائل المادية لكنه لا يرقى لمجتمع متحضر لأنه يفتقد الى أساس الحضارة وهو الانسان المثقف.

يقول جودت سعيد في مقاله (مالك بن نبي والقابلية للاستعمار) أنه حينما تعرف الى أفكار مالك بن نبي في الخمسينيات من خلال كتابه (شروط النهضة) أصيب بصدمة فكرية حينما تعرف الى فكرته المعروفة بالقابلية للاستعمار، فهذه الفكرة الانقلابية غيرت المفاهيم السائدة لزمان طويل والتي كانت تسم الاستعمار بكل صور الوحشية، اذ وقف الفكر أمام طرح جديد لا يجعل من الاستعمار المسؤول الوحيد عن كل ما يحدث في مجتمع ما بل ان المجتمع يتحمل جزءا من هذا الاستعمار انطلاقا من الاستسلام أولا ومن التخلف ثانيا. ان المجتمع الذي يفتقد الى الثقافة هو مجتمع يحمل بذور موته.

لقد سعى مالك بن نبي الى خلق مشروع حضاري متكامل، يبدأ بالإنسان وينتهي إليه، هذا الانسان الذي يصنع التاريخ ولا يمكن أن يتم ذلك إلا من خلال فئات ثلاث:

أ-تأثير عالم الأشخاص.

ب-تأثير عالم الأفكار.

ج-تأثير عالم الأشياء.

وهذه الفئات الثلاث لا تعمل متفرقة " بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج ايدولوجية من عالم الأفكار، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص"¹⁵. فلكي نؤسس لمشروع حضاري لا بد من هذه العناصر الثلاثة والتي تعمل

متحدة. ان الانسان مضافا اليه نراب وزمن هي المعادلة التي يتطلبها قيام حضارة ،والحضارة حسب بن نبي" جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه"¹⁶. فلا يمكن لأية أمة من الأمم أن تبني حضارة إلا بتوافر هذه الشروط التي في ضوئها يتحول الفرد الى منتج بدل أن يكون مجرد مستهلك، لأن استيراد المجتمع لأفكار وأشياء مجتمع آخر لا يجعله صانع حضارة فلا حضارة يمكنها أن" تبيعنا روحها وأفكارها الذاتية وأذواقها..وبدونها تصبح كل الأشياء التي تبيعنا اياها فارغة دون روح وبغير هدف"¹⁷. فالحضارة التي لا تصنع نفسها وتعتمد على غيرها لا يمكنها الاستمرار. انها ستقترض بعد مرحلة زمنية قصيرة.

ان من شروط الحضارة الأساسية الانسان..هذا الكائن الذي بنى عليه بن نبي مجمل أفكاره والذي يحل فكرة البناء والتهديم.فهذا الانسان هو الموجه الأول للأفكار والأشياء والذي يبني الحضارة.ولعل من بين الشروط التي يراها المفكر في الانسان ثقافته.

ب/ الثقافة:

لا تتفصل الثقافة عن الفاعلية في فكرمالك بن نبي كما لا تفصل عن الحضارة فمن خلال تحقق الشرط الأول ينتج عنه تحقق الشرط الثاني.. حين يكون الفرد مثقفا يصبح فعالا. ان الثقافة هي ذاك العنصر الهام والضروري لتكوين الانسان.والفرد أو الإنسان هو محور اهتمام ابن نبي من خلال كل مؤلفاته..

الانسان هو الموجه الأساسي للأفكار هو الذي يبني الحضارة انطلاقا من قدراته وإيمانه بقيمته الاجتماعية.ولكي تتحقق النهضة يجب أن تتوافر شروط يحددها بن نبي في معرفة الانسان لنفسه ثم تعرفه على الآخرين بنفسه ثم تقديم نفسه للآخرين في أجمل صورة.

ولكي تتحقق فاعلية الانسان في المجتمع لا بد أن يتحقق شرطا ضروريا هو الثقافة.ان الثقافة حسب بن نبي " ليست مجرد علم يتعلمه الانسان في المدارس ويطالعه في الكتب"¹⁸.

وهنا يضرب بن نبي مثالا عن الثقافة في اشارته لموقفين يتعلق أحدهما بالجزائريين حين منعت فرنسا اللغة العربية في الجزائر وبين يهود الجزائر حين طبقت الجمهورية الرابعة ما أمر به هتلر من حيث منعهم من التدريس. والذي حدث هو موقف الطائفتين الجزائرية واليهودية ، فالفئة الأولى لم تتوقف عن التنديد والاستنكار لما تفعله فرنسا/الاستعمار وكتابة المقالات أما الفئة الثانية فلم تستنكر ولم تتدد بل أدركت الخطر الذي يهدد أطفالها وأنهم سينشأون أميين ولذلك كان الحل الذي لجأت اليه أن يتطوع كل فرد متعلم ببعض وقته ليعلم أبناء اليهود وبذلك كان موقف الفئتين المختلف.

ان الثقافة لا يمكنها أن تكون أسلوبا اجتماعيا ناجحا إلا ارتبطت بعناصر أساسية أخرى هي الأخلاق والذوق الجمالي والعلم أو الصناعة وهذا ما يؤكد عليه ابن نبي في قوله: " ان الثقافة تشتمل على أربعة فصول: فصل أخلاق، وفصل جمال، وفصل منطق عملي، وفصل علم"¹⁹. هذه الشروط هي التي تجعل الثقافة قادرة على فعل التغيير في المجتمع. وفي هذا يتعجب بن نبي من المسلمين الذين يدينون بدين هو أفضل وأصلح الأديان لكنهم لا يستمدون منه أي تعاليم. هذا الدين الذي خاطب الانسان في قوله تعالى: " يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك"²⁰. انه تكريم لهذا الانسان الذي هو أجمل مخلوقات الله والذي ميزه بما لم يميز به غيره من الكائنات، انه العقل الذي يستطيع من خلاله تسيير ما حوله وما سخره الله له. فهذا الانسان ان استطاع أن يلتزم بتلك الضوابط التي حددها بن نبي فإنه سيصل الى تحقيق غايته وهي صنع مجتمع متحضر. فالثقافة لوحدها دون رابط أخلاقي ستجر المجتمع الى طريق مسدود وهنا يؤكد ابن نبي على أن الثقافة لا يمكن تحقيقها دون اشتغالها على وازع أخلاقي، هذا الشرط الذي "يجعل كل فرد مرتبطا بهذا الأسلوب، فلا يحدث فيه نشوزا بسلوكه الخاص"²¹. وحين نصل الى تحقيق شرط الثقافة فإننا سنصل حتما الى تحقيق الحضارة التي هي غاية كل أمة.

ج/ العمل:

خاطب الله الانسان في الكثير من سور القرآن، اذ وردت كلمة الانسان 58 مرة. وباختلاف شكل الخطاب ومقصده ظل الانسان هو المحور.

يقول تعالى: "يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه"²². فهذه الآية تحمل معنى العمل والحث عليه. ولأنه لا عمل بدون جزاء فإن المهتمين بالاقتصاد يرون فيها أكمل صورة للعمل وجزاء العمل. وإذا اختلت المعادلة ففقد أحد شرطيهما سيختل الاقتصاد. وهنا يرى ابن نبي أنه قد يكون الخلل في عالم الأفكار أو الأشخاص أو الأشياء وقد يكون في جميعها.

إذا كان هناك من يبني وبالمقابل هناك من يخرب فإن الأمر سيؤثر سلبا على تقدم أي مجتمع "فالسارق وشارب الخمر والذي ستغل اخوانه هو حجر عثرة في طريق المجتمع بل هو ذاته مرض متجسم"²³. لكن المشكلة من وجهة نظر ابن نبي لا تتعلق بالفرد كفرد بل بالمجتمع الذي نشأ فيه. فالمجتمع المتحضر يكفل للفرد حياة كريمة بغض النظر عن قيمته اجتماعيا بينما المجتمع المتخلف فإنه لا يمتلك تلك الضمانات.

فالفرد الذي فقد كل معنى لحياته في مجتمع فاقد أصلا لكل مسوغات وجوده يتحول الى فرد سلبي لا يجد في الحياة دورا، ومن ثمة يتحول من منتج الى مجرد مستهلك يختصر عالمه كما عبر عن ذلك ابن نبي في قوله: "تعبّر عنه فلسفة ساذجة أفرغت حكمتها الميتة في العبارة التي ترددها الجماهير بالشمال الإفريقي، حيث يقول الفرد عندما يسأل عن مهمة حياته-تأكل القوت وننتظر الموت-ولا يوجد تعبير أكثر وضوحا من هذا التعبير عن مجتمع فقد تماما مسوغات وجوده"²⁴. فهذا المثل يعبر أحسن تعبير عن مجتمع لم يعد العمل من أولوياته كما أمره بذلك دينه ولم يعد قادرا على اثبات ذاته والقيام بواجبه.

ان العمل ولو كان على مستوى بسيط هو مقوم أساسي لنجاح الفرد ونجاح المجتمع من حوله، لكننا لا نستطيع الوصول الى مجتمع ناجح إلا اذا أنشأنا فردا صالحا يرى في العمل الدنيوي مطية لدار أخرى.

د/الحضارة:

والحضارة حسب بان نبي لا تقوم دون عقيدة. انها ركيزتها التي تستمد منها مقوماتها وإننا لا نجد عبر التاريخ حضارة قامت دون عقيدة أو على الأقل وازع ديني. فالحضارة "لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحى يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا، أو هي - على الأقل - تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما فُدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية"²⁵.

رأى ابن نبي في الدين الاسلامي مثالا ومنهجا متكاملا لحياة الفرد والأمة كما رآه أساسا لبناء مشروع حضاري. هذا الدين الذي انبنى على ثقافة بدأت بفعل أمر هو اقرأ.. هذا الفعل الذي يجعل من الدين الاسلامي دين لا يكتفي بالوعظ بل يمهّد الطريق للفرد ليخوض معركة الحياة.

ولولا اقرأ لما كان للمجتمع العربي من أثر. انها ذاك الشعاع الذي ينبثق من الظلمة ليفتح أكوانا لم تكن لتتفتح لولاها وهي ذاك الأمر الذي يشمل التغيير. وهنا نرى ابن نبي يركز على الاستشهاد بالآيات القرآنية التي يرى من خلالها انفتاح الاسلام على كل مقومات الحضارة.

بدءا من الأمر بالتغيير الذي في قوله تعالى: "ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"²⁶. يشرع ابن نبي في طرح فكرته الداعية الى التغيير، فالتغيير يبدأ من الفرد وينتقل الى الجماعة وكلما كان الفرد ايجابيا في أن يبدأ فعل التغيير كلما كان اقتداء الجماعة به سريعا.

ان القرآن ليس مجرد آيات جامدة يتلوها الفرد بل هي دعوة ومنهج حياة كاملة ترسخ قيمة الانسان وتمنحه مزيدا من الطاقة لمواجهة الحياة. ولكن اذا تحولت هذه الآيات الى مجرد آيات نتلوها دون أن نستكنه خباياها ودون أن نستتبط منها تلك القيمة التي تحملها في طياتها فإن مفعولها سيزول لأنها بذلك تفقد القيمة التي تحملها وهي تحريكها للحياة. وكلما قل ايماننا بتلك الآيات والذي يدفعنا الى تطبيقها والعمل بها فإنه لا شيء يعوض ذلك وهكذا

فإنه حسب ابن نبي اذا ضعف ايمان الانسان المسلم بالقرآن فإنه لا زمن يكفيه ليعوض ذلك.

الوصول الى مجتمع فاضل:

الوصول الى بناء مجتمع أفضل وربما فاضل هي الغاية التي سعى اليها ابن نبي من خلال كل الأفكار التي نادى بها. فإذا استطعنا أن نكون انسانا راقيا كونه كائنا خصه الله بمميزات جمالية كثيرة، استطعنا أن نؤسس المجتمع الذي نطمح اليه. ومن خلال هذه الخصائص التي حبا بها الله الانسان فإن سعيه لن يكون مشابها لبقية الكائنات التي هدفها حفظ النوع بل يتميز عنها " فالإنسان يعيش لأهداف أخرى والمجتمع الانساني يقرر فكرته في مستوى آخر ليس مستوى البقاء، ولكن مستوى تطور النوع ورفيه ، هذه هي حقيقة المجتمع التي ينبغي عليها كيانه"²⁷. ومن هنا يصل ابن نبي الى الهدف الذي من أجله يتكون المجتمع بمفهومه الصحيح.

وفي مقارنة له بين الاسلام وديانات أخرى، يأخذ الاسلام بالحياة التي تكون بعد الموت في حين تقتصر الديانات الأخرى على الحياة الأولى لا أكثر. ويستشهد ابن نبي بقوله تعالى: "وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا"²⁸. فحياة المسلم الدنيوية لا تتفصل عن آخرته. ان المجتمع المسلم حسب بن نبي مطالب بجهد مضاعف كونه " يبني لما بعد الحياة، كما يبني لأهداف يحققها لحياة كل فرد وهذا بالطبع يتطلب من المسلم ومن العربي جهدا أقدر من جهد الآخرين وجهادا أكبر من جهادهم"²⁹. انه عملية متكاملة الأطراف وكل تقصير في احداها يخل بالأخرى. هذا الكيان الذي نسعى لتأسيسه هو المجتمع الأفضل، ولكي يتحقق ذلك لا بد من التوازن في النظر الى الحقائق مجتمعة" فإذا أردنا أن نبني مجتمعا أفضل فهذا يعني أننا نبني مجتمعا متحضرا وهو بدوره أيضا يعني أنه لا بد أن نعمل لتكوين حضارة"³⁰. فالحضارة فعل انساني لا يتحقق إلا بشروط معينة.

أفكار مالك بن نبي وواقعنا اليوم.

أشار مالك بن نبي الى العديد من النقاط المتعلقة بتكوين انسان متحضر قادر على صنع حضارة، انسان لا يمكنه أن يعيش خارج المجتمع. لقد وضع يده على الجرح /الداء الذي يعاني منه المجتمع العربي عبر السنين، وحاول المرور به الى بر آمن مبتعدا عن التعصب والسلبية والحلول السهلة.

ان مجتمعا كمجتمعنا بحاجة اليوم الى ما كان ينادي به ابن نبي منذ عشرات السنين حول تكوين فرد مثقف لنتمكن من بناء مجتمع متحضر.

-أشار ابن نبي الى عدة أفكار سلبية يعاني منها مجتمعنا كمشكلة الثقافة التي لم نأخذ منها إلا جانبها المعلوماتي لكننا نفتقد الى تطبيقها الفعلي. فعلى سبيل المثال مشكلة النظافة التي تطرق اليها والتي يعاني منها مجتمعنا، هي مشكلة لم تحل منذ زمنه والى اليوم رغم ديننا الذي يحث على النظافة وبقوة ناهيك عن الشوارع طبعاً. فرغم وجود الكثير من سلال المهملات والكثير من الملصقات في أماكن كثيرة ومنها ما هو على مدخل كل معهد إلا أن ذلك لم يمنع من وجود أكواب القهوة والشاي مبعثرة في كل مكان، اضافة الى أكوام الأوراق وغيرها.

-ومن الأمثلة أيضا كتابة الطلبة على الطاولات والجدران وتشويهها، وحتى الأسقف لم تسلم من بقايا كريات التبغ التي يرمون بها فتلتصق هناك لتزيد المنظر تشوهاً..

-اصرار الطالب على أن يحصل على علامة عالية دون أن يبذل جهد، ألغى قيمة عمله كطالب يسعى الى النجاح ويسعى لتحصيل علمي. قيمة العمل فقدت معناها في وسط أقل ما يقال عنه أن فضاء علمي.

فلو طرحنا هذا السؤال: هل يمكن القول ان الطلبة غير متواجدين بوسط ثقافي؟.اجابتنا ستكون:على العكس.وربما ليس هناك وسط أكثر ثقافة من الجامعة ورغم ذلك فإن النظافة تكاد تنعدم.فالخلل ليس في كون الطلبة لا يتمتعون بالثقافة ولكن المشكلة هي أنهم لم يأخذوا من الثقافة إلا معناها النظري أو بمعنى آخر العلمي في حين أن الثقافة ممارسة وسلوك اجتماعي راق.فلو أدرك الطلبة خطورة المشكلة وهي نظافة المحيط الذي يدرسون فيه وأن عليهم أن يكونوا مسؤولين عن كل ما يصدر منهم، لو أدركوا أن الطاولات والقاعات ليست مخصصة لدفعتهم فقط ويمكن الاستغناء عنها لاختلف سلوكهم.ولو أدرك الأستاذ أيضا أنه مسؤول لكان تنبيهه لهم وتوجيه سلوكهم قادرا على خلق طالب مثقف سلوكيا.

ولو طرحنا السؤال الثاني:هل يعرف الأستاذ أن طالبا لم يحضر الى محاضرتة ولم يقم بواجبه كطالب يستطيع أن يحصل على علامة عالية مقارنة بطالب يجد في عمله ويبدل قصارى جهده ليكون مميزا، طالب كادح يحضر مبكرا في حافلة ويقطع عشرات الكيلومترات وحالة اقتصادية متعبة تظهر عليه؟ تكون إجابتنا: نعم.انه يعرف.وهو من وضع علامتين الطالبين، قيم الأول نتيجة أفكار ترسخت حوله وقيم الثاني نتيجة قناعته.وفي الحالتين فقد ظلم الاثنين.ظلم الأول لأنه سيساهم في تنشئة جيل فاقد لقيمة العمل والجهد وظلم الثاني لأنه حرمه على حساب الأول.

-ان الفهم غير الصحيح للدين الذي يدعو للنظافة وللقيام بالواجب قبل المطالبة بالحق هو ما جعل الفرد المسلم في مجتمعنا يفقد صلته بحقيقة الأشياء وهو ما دفع مجتمعنا الى نفق مظلم.

تغيير الأفكار لا يكون إلا انطلاقا من النفس،لينتقل الى المحيط أو المجتمع..اقتناع الفرد بالفكرة وسعيه لتطبيقها هو القادر على بدء عملية التغيير.لنؤسس مجتمعا متحضرا يجب أن نؤسس قبله فردا مسؤولا لا يكتفي بأن يكون مثقفا بل أن يظهر لنا ثقافته في ممارسته

اليومية.فلو اقتنع الفرد أن لا رقيب عليه إلا ضميره الذي يوجهه الى الفعل الجميل فإنه لا محالة سينقل جماله هذا الى من حوله.

- اقتناع الأستاذ على سبيل المثال أن رنين هاتفه داخل المدرج أو القاعة سلوك لا يتنافى مع الثقافة يحيل بالضرورة الى اقتناع الطالب بسوء هذا السلوك وبالتالي تجنبه، واقتناعه بنظافة المدرج أو القاعة لخلق مكان جميل سيؤدي بالضرورة الى سلوك حضاري يمنع كتابته على الطاولة أو رميه بكوب الشاي أو القهوة أو دلعها على الطاولة أيضا.

اقتناع الأستاذ أن لديه واجبا يتعدى علامة يمنحها لطالب سيؤدي بالضرورة حب الطالب وسعيه ليأخذ علما لا أن يأخذ علامة وان كان ذلك بوسائل لا تمت بصلة للعلم.

اقتناعنا جميعا بالقول: لا تستح من اعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه، قادرة على خلق توازن انساني واجتماعي .مثال ابن نبي عن امرأة في مجتمع فرنسي لا تملك جمالا ولا خلقا تدخل مقهى فتخرج منه وقد حصلت على مال أغدقه عليها الحاضرون ورجل جزائري كريم الخلق والدين لا يجد قوت أطفاله.

الأمثلة كثيرة لكن الأفكار التي نادى بها المصلحون وعلى رأسهم ابن نبي سواء في الاقتصاد أو المجتمع ما تزال مجرد أفكار نظرية لم تجد لها مكانا بيننا.ما يزال ابن نبي مجهولا في بلده مثلما غيره كثيرون.مازلنا لم نقنع بأن الثقافة ليست شهادة نحصل عليها دون أن نبذل جهدا بل الثقافة كيف تكون انسانا فعلا قادرا على خلق الجمال من القبح.

الثقافة تبدأ من قناعتنا بالفكرة الصائبة ليسهل تطبيقها.ولو أخذنا بعين الاعتبار ما قال به مالك بن نبي منذ خمسينيات القرن لكنا استطعنا أن نؤسس مجتمعا ينمو فيه العلم ويسمو فيه الجمال.

خاتمة:

دراسات مالك بن نبي لم تأت من فراغ ولم تكن مجرد أفكار نظرية، بل هي مشروع حضاري متكامل يسعى لبناء مجتمع راق بكل المقاييس الانسانية والعلمية. هذه الأفكار لم تكن مستمدة من نظريات غربية.

لقد أسس لاتجاه فكري يعتمد العلم والدين منهاجا متخذا من الواقع الاجتماعي سبيلا للدراسة واستنباط النظريات التي ان طبقت فعليا ستحقق نتائج هامة وفعالية. هذا المنهج الذي قام على التغيير الذي يجب أن يمس الفرد والمجتمع ليتم القضاء على التخلف والفقر وكل ما يعاني منه هذا المجتمع من أمراض.

يؤكد ابن نبي على امكانية الأخذ بكل الأسباب التي قد تساهم في اخراج المجتمع من دوامته السلبية، ولا ينكر الأخذ من حضارات أخرى اذا كان في امكانها أن تخدم حاجاتنا فيقول: "إن علينا أن نأخذ من الحضارة الغربية الأدوات التي تلزم في بناء حضارتنا.. حتى يأتي يوم نستطيع فيه الاستغناء عنها بمنتجاتنا"³¹. اننا بحاجة اليوم الى تلك الأفكار النيرة التي أراد بها مالك بن نبي أن يضيء بها عوالمنا المعتمدة ليشرق نور في ظل مجتمع متحضر.

ضرب لنا ابن نبي أمثلة كثيرة من واقعه ما تزال سارية في واقعنا، قارن بين مجتمع مسلم ومجتمع لا دين له، واكتشف أننا نعاني مشكلة أفكار أولا. أمثلة كثيرة تنير العقل وتصل به الى مستوى من النضج.

المراجع و الهوامش:

- 1-بن نبي، مذكرات شاهد القرن،دار الفكر، دمشق 1984،ص15.
- 2-بن نبي، مالك، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق 1986،ص22.
- 3-بن نبي،، مالك،وجهة العالم الاسلامي، دار الفكر، دمشق 1981، ص47.
- 4-بن نبي، مالك، تأملات،، دار الفكر، دمشق 1979،دار الفكر ،بيروت ،ص36.
- 5-بن نبي، مالك، شروط النهضة ،ص158.
- 6-بن نبي،تأملات، ص128.
- 7-المصدر نفسه، ص129.
- 8-المصدر نفسه، ص129.
- 9-المصدر نفسه، ص129.
- 10-المصدر نفسه، ص135.
- 11-بن نبي، مالك، شروط النهضة، ص78.
- 12-بن نبي، مالك، ميلاد مجتمع، ت/عبد الصبور شاهين ،دار الفكر الجزائر ودار الفكر سورية،ط3، 1989،ص65.
- 13-في فكر مالك بن نبي مجلة شعوب.
- 14-بن نبي، مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي دار الفكر، دمشق،ص36.
- 15-بن نبي، مالك،ميلاد مجتمع، ص27.
- 16- بن نبي، مالك،مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص05.

17-بن نبي، مالك، شروط النهضة، ص43.

18-بن نبي، مالك، تأملات، ص147.

19-المصدر فسه ص152.

20-سورة الانفطار، آية 6،7،8.

21-بن نبي، مالك، تأملات، ص148.

22-سورة الانشطار آية06.

23-بن نبي، مالك، تأملات، ص22.

24-المصدر نفسه، ص44.

25-بن نبي، مالك، شروط النهضة، ص51.

26-سورة الرعد آية 11.

27-بن نبي، مالك تأملات، ص158.

28-سورة القصص، آية 28، 77.

29-بن نبي، مالك، تأملات، ص158.

30-المصدر نفسه، ص164.

31-المصدر نفسه، ص170.